شُكْرًا جَزِيلًا سَيِّدِي الرَّئِيسُ
أَوَّلًا: إِنَّهُ لَشَرَفٌ لِي أَنْ أَتَحَدَّثَ فِي ظِلِّ وُجُودِ هَذَا الجَمْعِ المُتَمَيِّزِ لِتَقْدِيمِ آرَاءٍ حَولَ المَوضُوعَاتِ الَّتِي نُنَاقِشُهَا لِمُدَّةِ يَومَينِ، وَكَذَلِكَ أَوَدُّ أَنْ أَشْكُرَ فَضِيلَةَ الإِمَامِ الطَّيِّبِ عَلَى دَعْوَتِهِ، وَأَوَدُّ أَنْ أُقَدِّمَ نَفْسِي، وَبَدْوُ مِنَ الغَرِيبِ أَنْ نُقَدِّمَ أَنْفُسَنَا، وَلَكِنَّ الوَاقِعَ أَنَّنِي أَتَيتُ مِنْ بَلَدٍ فِي شَرْقِ أُورُوبَّا تَنْتَمِي إِلَى القِسْمِ الشَّمَالِي مِنْ أُورُوبَّا، ثُمَّ فِي أَوَاخِرِ القَرْنِ العِشْرِينَ، كَانَ هُنَاكَ خَلْطٌ لِلصَّلِيبِيِّينَ، وَلَكِنَّ الصَّلِيبِيِّينَ كَذَلِكَ قَدْ أَتَوا بِتِقَنِيَّاتٍ حَدِيثَةٍ مِنَ البِنَاءِ وَالتَّنَوُّعِ الثَّقَافِيِّ وَالاقتِصَادِيِّ مَعَ بَاقِي أَنْحَاءِ أُورُوبَّا.
الأَمْرُ الثَّانِي الهَامُّ: هُوَ أَنَّهُ فِي بِدَايَةِ القَرْنِ السَّابِعِ عَشَرَ عِنْدَمَا كَانَ مُعَدَّلُ الأُمِّيَّةِ وَمُعَدَّلُ الفَقْرِ حَوَالِي ٩٥، وَاليَومَ لَدَينَا سَبْعُ طَوَائِفَ مُسَجَّلَةٌ فِي المُجْتَمَعِ، هِيَ فِئَاتٌ مُسْلِمَةٌ أَوْ جَالِيَاتٌ مُسْلِمَةٌ صَغِيرَةٌ تَتَحَدَّثُ مُخْتَلَفَ اللُّغَاتِ، وَلَكِنَّنَا تَرْجَمْنَا القُرْآنَ إِلَى اللُّغَةِ اللَّاتِينِيَّةِ وَإِلَى الرُّوسِيَّةِ أَيضًا.
هَذَا مَا يَخُصُّنَا، وَلِكِنْ مَا يَخُصُّ بَاقِي العَالَمِ، فَإِنَّنَا نَعِيشُ فِي عَالَمٍ مَجْنُونٍ، هُنَاكَ أَخْبَارٌ مَغْلُوطَةٌ وَصُوَرٌ نَمَطِيَّةٌ، وَنَضَعُ بَعْضَ الأَشْخَاصِ فِي المُقَدِّمَةِ وَنُغْفِلُ بَاقِي العَالَمِ، هُنَاكَ طَرِيقٌ وَاعِرٌ مِنَ السَّقَطَاتِ المُخْتَلِفَةِ، وَبِالطَّبْعِ فَإِنَّنَا نَتَّفِقُ جَمِيعًا عَلَى ضَرُورَةِ الحِوَارِ، وَلَكِنَّنَا لَازِلْنَا جَمِيعًا نَعْمَلُ عَلَى حَلِّ المُشْكِلَةِ الَّتِي سَنُنَاقِشُهَا، وَلِمَاذَا أَنَا أَقُولُ هَذَا فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ؛ لِأَنَّهُ حَلَّ هَذِهِ المُشْكِلَةَ مُحْتَاجٌ إِلَى جَولَاتٍ عَدِيدَةٍ مِنَ الحِوَارَاتِ لِتَحْدِيدِ مَا نَتَحَدَّثُ عَنْهُ وَمَا نُرِيدُ الوُصُولَ إِلَيهِ، وَأُرِيدُ البَدْءَ فِي ثَلَاثَةِ أُمُورٍ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ تُحْدِثَ تَغْيِيرًا؛ وَهِيَ: (المُعْتَقَدَاتُ الدِّينِيَّةُ، وَالهُوِيَّاتُ العِرْقِيَّةُ، وَالتَّقَالِيدُ الأُسَرِيَّةُ) ، تِلْكَ الأُمُورُ مُهِمَّةٌ لِلْغَايَةِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ تَغْيِيرُهَا مِنَ الخَارِجِ؛ لِأَنَّهَا عَالِقَةٌ فِي أَذْهَانِنَا، وَكُلَّمَا ضَغَطْنَا عَلَيهَا مِنَ الخَارِجِ مِنْ أَجْلِ إِحْدَاثِ التَّغْيِيرِ، فَإِنَّنَا سَنُقَابَلُ بِمَزِيدٍ مِنَ الفَشَلِ، كُلَّمَا ضَغَطْنَا سَنَجِدُ الكَثِيرَ مِنَ المُقَاوَمَةِ كَمَا نَرَى اليَومَ؛ لِأَنَّ العَقْلَ البَشَرِيَّ يَكُونُ ثَابِتًا فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ، فَإِذَا أَرَدْنَا قَتْلَ العَقْلِ البَشَرِيِّ، فَإِنَّنَا نَقْتُلُ القِيَمَ، وَهَذَا مَا يَحْدُثُ اليَومَ، وَهَذَا لَيسَ الطَّرِيقَ الصَّحِيحَ.
وَلَكِنَّ هُنَاكَ سُؤَالًا عَنْ كَيفِيَّةِ البَدْءِ، هُنَاكَ عِدَّةُ أُمُورٍ يُمْكِنُ أَنْ نَتَّفِقَ عَلَيهَا جَمِيعًا:
أَوَّلًا: القِيَمُ الإِنْسَانِيَّةُ، فَجَمِيعُنَا نَعْتَقِدُ أَنَّ حَيَاةَ الشَّخْصِ هِيَ أَهَمُّ شَيءٍ فِي الحَيَاةِ، الأُسْرَةُ وَالأَطْفَالُ، تِلْكَ هِيَ قِيَمُنَا جَمِيعًا، وَكَذَلِكَ عَلَينَا أَنْ نَتَّفِقَ جَمِيعًا

ـ أَنَّ عَلَينَا ـ أَنَّنَا لَنْ نُعَلِّمَ بَعْضُنَا البَعْضَ كَيفِيَّةَ الحُبِّ أَوْ كَيفِيَّةَ خَلْقِ أَوْ تَكْوِينِ أُسْرَةٍ أَوْ كَيفَ نَكُونُ بَشَرًا؛ لِأَنَّ هَذَا جَوهَرُ الحَيَاةِ.
كَمَا يَجِبُ عَلَينَا أَنْ نَتَّفِقَ أَنَّ كُلَّ الأَدْيَانِ مُهِمَّةٌ، لَا يُوجَدُ دِينٌ يَتَفَوَّقُ عَلَى الدِّينِ الآخَرِ، وَعَلَينَا أَنْ نَتَفَهَّمَ أَنَّ الأَدْيَانَ كُلَّهَا مُكَمِّلَةٌ لِبَعْضِهَا البَعْضَ فِي هَذَا العَالَمِ؛ حَيثُ إِنَّ كُلَّهَا أَدْيَانٌ سَمَاوِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ خَلَقَنَا مُخْتَلِفِينَ، وَفِي نَفْسِ الوَقْتِ جَعَلَنَا مُتَسَاوِيِينَ.
وَالنُّقْطَةُ الثَّالِثَةُ: لَا يُوجَدُ حَضَارَاتٌ تَتَفَوَّقُ عَنْ غَيرِهَا مِنَ الحَضَارَاتِ الأُخْرَى. فَهَلْ نَحْنُ مُسْتَعِدُّونَ لِصِرَاعِ الحَضَارَاتِ ، أَمْ مُسْتَعِدُّونَ لِلتَّعَاوُنِ؟ هَذَا هُوَ التَّسَاؤُلُ!.
وَأَقُولُ: يَجِبُ أَنْ نَكُونَ مُسْتَعِدِّينَ لِلتَّعَاوُنِ، وَمِنَ الإِجْرَاءَاتِ العَدِيدَةِ الَّتِي نَرَاهَا اليَومَ: نَرَى المُسْلِمِينَ يَقْتُلُونَ المُسْلِمِينَ، وَالمَسِيحِيِّينَ الكَاثُولِيكَ يَقْتُلُ بَعْضَهُمُ بَعْضًا، فَهَذَا الأَمْرُ يَتَعَلَّقُ بِالقَوَاعِدِ الأَخْلَاقِيَّةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تَسْمُوا عَلَينَا جَمِيعًا.
وَلَكِنْ..كَيفَ لَنَا أَنْ نُطَبِّقَ تِلْكَ القَوَاعِدَ ، وَأَنْ نَكُونَ جَمِيعًا سُعَدَاءَ لِنَتَحَرَّرَ مِنَ الخَوفِ، فَلَا يُوجَدُ بَينَنَا شَخْصٌ يَشْعُرُ بِالخَوفِ؟
وَهَذَا هُوَ السُّؤَالُ الَّذِي فَكَّرْتُ فِيهِ عِدَّةَ سَنَوَاتٍ، وَهُوَ وُجُودُ دَولَةٍ علْمَانِيَّةٍ بِهَا قَوَاعِدُ لِكُلِّ جَمَاعَاتٍ دِينِيَّةٍ فِي هَذَا البَلَدِ. لَيسَ مِنَ المُهِمِّ إِذَا مَا كَانَ هُنَاكَ دِيمُقْرَاطِيَّةٌ لِيبْرَالِيَّةٌ أَوْ حَتَّى دِيكْتَاتُورِيَّةٌ ، فَالمُهِمُّ أَنْ تَكُونَ دَولَةً علْمَانِيَّةً ، وَأَنْ يَشْعُرَ كُلُّ شَخْصٍ بِالمُسَاوَاةِ، فَإِذَا مَا حَقَّقْنَا ذَلِكَ فَإِنَّنَا سَوفَ نَنْجَحُ، وَلَا يَجِبُ أَنْ نُعَلِّمَ بَعْضَنَا البَعْضَ مَا هُوَ الصَّوَابُ وَالخَطَأُ، وَإِنَّمَا الهَدَفُ الأَسَاسِيُّ لِلدَّولَةِ تَحْقِيقُ العَدَالَةِ الاِجْتِمَاعِيَّةِ .
وَلَكِنْ إِذَا مَا وَفَّرَتِ الدَّولَةُ الدَّعْمَ وَالإِحْسَاسَ بِالأَمْنِ لِكُلِّ دِينٍ فَالكُلُّ يَشْعُرُ بِالحُرِّيَّةِ، وَلَا أَحَدَ يُهَاجِمُ الآخَرَ، وَلَا يُوجَدُ أَيُّ مُعْتَقَدَاتٍ رَادِيكَالِيَّةٍ، فَلَا أَحَدَ يَعْتَدِي عَلَي الآخَرِ، وَهَذَا هُوَ المَوقِفُ الَّذِي يكملُ الدَّولَة وَالدِّين بَعْضهُمَا الآخَرَ.
وَإِذَا مَا اعْتَبَرْنَا وَتَصَفَّحْنَا التَّارِيخَ فَلَنْ نَجِدَ هُنَاكَ عَدِيدًا مِنَ الأَمْثِلَةِ لِتِلْكَ الدُّوَلِ الَّتِي تَعْتَنِقُ دِينًا وَاحِدًا وَنَجَحَتْ فِي تَوفِيرِ الرَّفَاهِيَّةِ لِمُوَاطِنِيهَا؛ لِأَنَّهَا عَاجِلًا أَوْ آجِلًا سَتُحَقِّقُ العَدَالَةَ الَّتِي تَدْعَمُهَا الدَّولَةُ .
سَوفَ أَتَحَدَّثُ قَلِيلًا عَنِ الوَطَنِيَّةِ؛ حَيثُ إِنَّ كَثِيرًا مَا ذُكِرَتْ هَذِهِ الكَلِمَةُ فِي القَاعَةِ بِمَفْهُومٍ سَلْبِيٍّ.

نَعَمْ ..إِذَا كَانَ هَذَا مَا نُطْلِقُ عَلَيهِ القَومِيَّةَ أَوْ مِنَ التَّشْكِيلِ الوَطَنِيِّ إِذَا مَا ذَكَرَ أَحَدٌ أَنَّ رَئِيسَ الوِلَايَاتِ المُتَّحِدَةِ يَصْنَعُ أَمْرِيكَا الأُولَى لِتَأْسِيسِ الجُذُورِ لِلإِحْسَاسِ بِالقَومِيَّةِ، وَلَكِنْ إِذَا مَا سَأَلْنَا: مَنْ نَحْنُ وَأَنْتُمْ ؟ سَوفَ تَكُونُ الإِجَابَةُ بِالهُوِيَّةِ الوَطَنِيَّةِ، فَأَنَا أَشْعُرُ بِالفَخْرِ - مَثَلًا- بِالجُذُورِ اللَّاتِينِيَّةِ، وَالكَثِيرُ مِنْكُمْ يَشْعُرُ بِالفَخْرِ بِالجُذُورِ العَرَبِيَّةِ أَوِ المِصْرِيَّةِ، وَبَعْضُكُمْ بِالجُذُورِ الفِرِنْسِيَّةِ أَوْ البِلْجِيكِيَّةِ؛ لِذَلِكَ لَا يُمْكِنُ أَنْ نَمْحُوَ الهُوِيَّةَ الوَطَنِيَّةَ، فَهَذَا أَمْرٌ مُسْتَحِيلٌ.
لِذَا يَجِبُ أَنْ نَعْمَلَ مَعَهَا مِنْ مَنْظُورٍ مُخْتَلِفٍ إِيجَابِيٍّ، وَأَنْ يَكُونَ نَوعٌ مِنَ الوَطَنِيَّةِ أَنْ يَشْمَلَ الجَمِيعَ، وَأَنْ نَتَبَادَلَ الخِبْرَةَ فِي كُلِّ المَجَالَاتِ مِنْ أَجْلِ تَحْسِينِ الحَيَاةِ لِكُلِّ فَرْدٍ إِذَا كَانَتْ لَدَينَا المُقَوِّمَاتُ الصَّحِيحَةُ لِهَذَا المُصْطَلَحِ؛ حَيثُ إِنَّ الهُوِيَّةَ تَكْمُنُ فِي أَذْهَانِنَا؛ لِأَنَّنَا وَرِثْنَاهَا عَنْ آبَائِنَا وَمِنَ المُسْتَحِيلِ مَحْوُهَا.
وَإِذَا مَا نَظَرْنَا إِلَى الشَّعْبَوِيَّةِ، هِيَ دَائِمًا أَمْرٌ سَيِءٌ؛ فَهِيَ أَبْسَطُ الطُّرُقِ الَّتِي تُحَاوِلُ بِهَا السُّلْطَةُ تَلْبِيَةَ حَاجَاتِ الشُّعُوبِ؛ لِذَا فَهِيَ تُسْتَخْدَمُ لِلْحُصُولِ عَلَى السُّلْطَةِ، وَأَنَا أَتَّفِقَ مَعَ هَذَا تَمَامًا، وَلَكِنْ تَكْمُنُ المُشْكِلَةُ فِي مَا يَحْدُثُ هُنَا، فِي أَيِّ بَلَدٍ قَدْ أَخْفَقَتْ فِي خَلْقِ الحِوَارِ مَعَ المُوَاطِنِينَ أَوِ الشَّعْبِ؛ لِذَلِكَ فَإِنَّ الخِيَارَ الشَّعْبَوِيَّ يَكُونُ سَائِدًا دَائِمًا.
إِذَا مَا نَظَرْنَا إِلَى مَنَاهِجِ البَرْجَمَاتِيَّةِ لِلْعَالَمِ فَهَذَا يَدْعُونِي لِلْقَولِ بِأَنَّنَا عَلَينَا أَنْ نُمَهِّدَ الطَّرِيقَ بِأَنْ نَخْلُقَ الحَدِيثَ بَينَنَا، ثُمَّ نُشَارِكَ أَفْكَارَنَا، بِمَعْنَى أَنْ نَجْلِسَ وَنَدْرُسَ فِي هَذِهِ القَاعَةِ كَمَا ذَكَرْتُ مِنْ قَبْلُ ، وَنُحَاوِلَ أَنْ نَفْهَمَ مَا أَقُولُهُ، وَأَنْ نُحَاوِلَ أَنْ نَتَشَارَكَ أَفْكَارَنَا ، فَإِنَّنَا سَنُحَقِّقُ تَقَدُّمًا كَبِيرًا بِينَ الغَرْبِ وَالإِسْلَامِ .
***